جبل الثلج

بقلم : محمد حسن عبد الله

« لا تشغل نفسك كثيرا بما يبدو من جبل الثلج . حدق فى الأعماق بحذر . واشدد قبضتك على الدفة » .

كان مصرا على أن أضحك .. الا أفارقه غاضبا .. وحزينا ، وما كان هو سبب عذابى .. وما كان باستطاعته أن يجتث جذور ذلك العذاب ... ولو استطاع لما توانى مهما كلفه الامر .. ولقد بذل ـ فى صدق أخوى ، كل ما يستطيع فى سبيل تحويل العبسة التى تكسو وجهى الى بسمة أو علامة ارتياح .. ولكن عبثا يحاول .. ان قلبى فيما يخص هذا الجانب كقلوب النساء !! متوحد الاتجاه .. اذا ضحك انغمر فى السرور ونسى كل شىء عدا اللحظة المرحة التى يعيشها .. واذا عبس تجهم ويئس وخال الدنيا ظلاما فى ظلام ..

ولقد كان (حسين) الطيب بما يبذله من محاولات للتسرية عنى جديرا بأن أتحامل على نفسى فأتجاوب معه ـ ولو تظاهرا ـ ولا أدعه هكذا حائرا لا يدرى ماذا يفعل ..

ـ أترى يا رفعت .. كل السائرين فى الشارع ضاحكون متشابكوا الأيدى الا أنا وأنت !! نعبس وكأننا نحمل الدنيا على رءوسنا .. ونتباعد كأننا زوج مع زوجته عائدا من بيت حماته!.

وابتسمت .. فعد ذلك انتصارا له واعترض طريقى واضعا يده على كتفى بينما تحاول اليد الاخرى استخلاص الحقيبة من يدى وهو يقول فى مرح :

ـ النبى تبسم .. ما رأيك وقد حللت العقدة أن تعود ! ؟ انتصر على شيطانك واطعنى .. انت تعرف على اى حال تركت اخوانك ..

ـ أرجوك يا حسين ـ لا تضايقنى.. انت زوج أختى .. لكنك فى قلبى أخ .. لو كان ما أحببته أكثر منك .. لكن .. هذه المرة .. دعنى أمضى ..

ـ ألم تحضر معك كتبا تكفيك أسبوعين ؟ معنى ذلك أن نيتك كانت متجهة للبقاء هذه المدة .. و ... أنت تعرف انه لايدلنا فيما حدث .. فما ذنبنا أن تحرمنا من ...

ـ مم أحرمك يا حسين ؟ .. هل ..

آه .. كنت أريد أن أقول : هل تسخر منى ؟ لكن كيف اقولها وانا على يقين من أن ذلك ابعد ما يكون عن تفكيره .. وانه مخلص فى حبه لى ،

صادق فى اعزازه ووده ، يبذل ما يبذل عن رضا وطيب خاطر .. بل انى لأحس فى لهجته البزيئة انه يعتبر قبولى لمعاونته تفضلا منى .. لا منه.. ويرى فى زياراتى له .. شرفا وتكريما .. لكن أحاسيسى الخاصة لم تكن ترحمنى .. كنت أشعر فى تلك اللحظات بأننى عبء عليهم ، وانني أحملهم من أمرى مالا يطيقون أو يريدون ..

ـ من أجل خاطرى ابق معنا يوما ..

ـ من أجل خاطرى دعنى أذهب .

كنا قد بلغنا ميدان المحطة .. وسيارات التاكسى تملأ جوانبه . وما ان وجدت سيارة تقصد القاهرة وينقصها فرد واحد حتى طغت الفرحة فوق ملامحى وكأنى أنقذت من مأزق.. فنظر حسين الى سرورى فى أسى وقال :

ـ الى هذا الحد صرنا نضايقك ؟

قلت وأنا أضع الحقيبة على المسند الخلفى : ليس أنت يا عزيزى .. اننى الذى أضايق نفسى وما أريد أن أضايقكم .. غدا ستعرف .. وتعذرنى وان لم تعرف فستعذرنى أيضا .. انا واثق من ذلك . . أنت مخلص . ، وطيب .. هذا رأيى فيك .. اليوم.. وغدا .. والى أن أموت .

كنت أتعجل لحظة الوداع لأخلو الى نفسى .. ان فى قلبى آلاما كثيرة أعرف أن التخلص منها مستحيل .. ولعلى لم أكن أسعى الى التخلص منها .. كنت فقط أريد أن أنظمها فأستحضرها الى خاطرى مشكلة وراء مشكلة .. وأتملاها .. وهكذا أظل أتأمل وأجترها فى تلذذ الى أن تهدأ نفسى وأستريح .

وما كادت السيارة تتحرك وأصافح حسينا من نافذتها حتى بادرت باغلاق الزجاج ونظرت خلفى فوجدته لا يزال واقفا حيث كانت السيارة ، وخيل الى ـ برغم الضوء الباهت ـ ان فى عينيه دموعا وان قلبه كسير حزين .. فوددت لو توقفت السيارة حتى أعود فأعانقه !! لكنها كانت تنطلق ..

كنا خمسة ـ غير السائق ـ وقد اشتبك الراكبان فى المقدمة الى جواره فى السيارات .. أما الراكبان فى المؤخرة ـ حديث معه حول معدل السرعة ومعدل الريح .. وخواص كل نوع من انواع غيرى ـ فقد أسند الراكب الى جانب الباب راسه الى الزاوية وأغمض عينيه ..والذى فى الوسط خلع حذاءه ووضع قدميه على ظهر المسند الأمامى واسترخى فى اهمال وراح يدندن فى خفوت حتى توهمت فى لحظة ما انه مطرب فى طريقه الى احياء حفل .. وانه يمرن حنجرته !! لكنى نفيت هذا الظن عندما اكتشفت كثرة ما يعترض اللحية من حشرجات وانسداد .. ان الطريق الى القاهرة يستغرق ساعتين. والثبات على وضع واحد طوال الرحلة أمر ممل .. ومن هنا فقد فعل كل فرد ما يحلو له .. وانصرفت أنا الى ما يحلو لى ..

كان الليل ساكنا والحقول تترامى على جانبى الطريق المظلم الذى تمزقه أضواء السيارة المنطلقة ثم تتركه يلتئم من خلفها ـ وكانت أضواء المدينة تبدو من بعيد ـ خلفنا ـ وكأنها أشباح قائمة فى صحراء مخيفة.. وما كادت السيارة تعتدل على طريق القاهرة الرئيسى حتى

أحسست بأنى حققت رغبتى وصرت وحيدا برغم الأجسام الخمسة التى تركب السيارة ، فالقيت بجسمى المكدود الى المسند فى ارتياح شديد .. لم أتعجل استعادة وضعى وتأمله ؟ ان الطريق الى القاهرة طويل .. ولكن قصتى أطول .. وأنا لا أملها .. انها تروقنى برغم أنه لا جديد فيها .. هل أنا معجب بنفسى فأذكر آلامى لأتذكر صمودى واحتمالى؟ أم أننى أكررها فأتذكر آلامى لأعذبها بها ؟ لا أدرى !! كل الذى أدريه أننى فتى معذب ليس بينى وبين القدر خصومة .. انه لا يتعمدنى بإيذائه .. لكننى ـ ولغير ما سبب معروف ـ أجدنى أفكر تفكيرا محزنا وأصبغ كل ما يعترضنى بلون قاتم .. لو جعلونى قائد معركة لتمنيت أن أكون أول شهيد أكثر من أن أكون البطل الظافر .. لماذا يروق لى أن أرى دمعة تسكب من أجلى أكثر مما أرى نظرة اعجاب ترمقنى ؟؟ لا أدرى ! بعض الناس يقولون ان سبب حزنى هو أننى لم أر أمى فاستقر احساس اليتم فى قلبى ! وبعضهم يقول ان السبب هو ضعف جسمى الذى يجعلنى أحس بالضآلة وأختى عطيات تزعم أن سبب ذلك هو فشل قصة حبى ! وعطيات ككل النساء لا ترى الا الاسباب القريبة .. أو السبب الاخير . ولعلى اخترت الدراسة فى قسم علم النفس لأحل مشكلتى وأفهم نفسى .. وبعد سنوات ثلاث من الدراسة أسائل نفسى : من أنا ؟ فأحير جوابا .

ما كدت أكتب الكلمة الاخيرة فى الامتحان حتى كنت أنكر فى عطلة ممتعة فى مدينتى الصغيرة بعيدا عن مدينة الضياع التى أشعر فيها كأنى غريبة تائهة فى محيط .. هناك منزلنا الصغير .. يعرفنى البقال والجزار والمكوجى .. وتعرفنى أسر الشارع وفتياته واطفاله .. ما أكاد أغادر البيت حتى ألقى التحايا يمينا ويسارا .. وأتلقى « صباح الخير » « ونهارك فل » وكأنها ورود تنثر فى طريقى .. وعندما رأيت القاهرة أعجبت بروعتها .. لكننى كرهت ضياعى فيها .. حتى البواب الذى أنقده ايجار الشقة كل شهر لا يكاد يعرف اسمى كاملا .. وأصحاب البيوت ينظرون الى باستعلاء : « نحن آسفون .. لا نسكن العزاب !! »

ـ يا سادتى .. كل متزوج كان أعزب !!

ـ لكنه لم يسكن عندنا الا مع زوجته .. وأصبح من حقه أن يخشى عليها .

ـ هل أتزوج من أجل السكن !؟ يا ناس أصابعكم ليست مثل بعضها ..

ـ آسفون .. اننا لا ندرى أى اصبع انت !!

وربما أسير فى شوارع المدينة القاسية ساعات وساعات فلا يحادثنى أحد .. كأنى غريب عن دنيا البشر .

كانت أضواء السيارات التى تقابلنا فى الطريق تتراءى لى من مقعدى فى المؤلف منعكسة على الزجاج الأمامى فى عمودين راسيين .. وكلما تقاربت السيارتان المتقابلتان تضخم العمودان من أعلى وتقاربا من أسفل وتمايلا على جنبيهما الى اليسار حتى يمحيا بموازاة السيارة الاخرى لنا ثم مضيها من خلفنا وكانت هذه الحركة الرتيبة تجذب بصرى فأراقبها فى تلقائية غير واعية .

لكنى تنبهت فى لمحة على أن العمودين المرسومين على الزجاج لم يميلا الى اليسار .. وسمعت فرامل شديدة انخلع لها قلبى .. وانحدرت سيارتنا الى أقصى يمين الطريق ثم توقفت ، لكن السيارة الاخرى لم تأبه بنا .. فتطلع اليها سائقنا بغيظ وقذف مؤخرتها ببضع شتائم جارحة متهما سائقها بأنه مسطول ابن مسطول .. آه ياسائقنا لو تعرف .. اننى الآخر أعيش فى حذر لذيذ وجو سحرى من أطياف أمهاتى الثلاث !!! ان احساسى نحو اخواتى احساس الابن نحو أمه .. كنت أشعر دائما اننى جزء منفصل عن أصل كبير. فما أكاد أعود الى مدينتى الصغيرة — وأطرق باب البيت طرقاتى المعهودة . ويفتح البّاب وتعم الضجة أركان الجنة الصغيرة وألتقى مع الشقيقات فى عناق طويل .. حتى أشعر بأنى أكمل نفسى ..بأننى أضم اليها أجزاءها الضائعة.. ثم يأتى حسين .. زوج أختى الكبرى. فيشد على يدى فأحس بقلبه يعانق قلبى .. ويعلن الرجل الطيب بأنه لن يبارح البيت ذلك المساء من أجلى .. انه فى شوق الى .. وأنا أيضا يا حسين ... لكن .. أرجوك .. دعنى مع اخواتى.. انك لا تعرف .. ان هناك سؤالا حائرا ما زال يتفجر على طرف لسانى .. لن أقوله بحضورك .. اخرج أرجوك .. يا الهى .. كم يضايقنا الذين نحبهم من حيث لا يشعرون !!

ونزل حسين ليشترى فاكهة .. انها فرصتى .. بلا شك أو دوران ..الوقت ضيق وأختى تعرف كل شىء .

— كيف هى يا عطيات .

— من

— ومن غيرها ؟

قالت وعلى فمها بوادر بسمة حزينة: المرآة ؟

— ومن غيرها ؟ اننى لا أرى صورتى الا فى عينيها الضاحكتين .. لولا وجود حسين فملتكم على السهر معى هذه الليلة فى الشرفة برغم برد (طوبة) .. لعلها أن تطل من نافذتها .

— ولو أطلت فلن تجد صورتك فى عينيها .

— لماذا ؟

— دعك منها .. اصرف النظر .

— بالله لا تعذبينى .

— ستجد فى المرآة صورة رجل آخر .

— ماذا ؟

— لقد تزوجت !!!

.. لقد تحطمت المرآة .. صارت شظايا وقطعا صغيرة غير متناسقة فصار لى ألف وجه ووجه .. فى كل قطعة وجه على نسق معين .. لكنه ليس النسق الطبيعى .. لقد تحطم قلبى هو الآخر فصار شظايا ... مقتولة لا قاتلة .

وبكت أصغر اخواتى ... وحاولت عطيات أن تنهرها لكنها لم تستطع أن تمضى .. وقامت الوسطى الى حجرة أخرى تقاوم شهقاتها .. وأحسست أنا باختناق شديد وبقلبى ينسحق تحت ثقل جبار .

وسمعنا اقدام حسين تصعد السلم فاستعدنا هدوءنا سريعا.. والقى امامى

obeikandl.com

مستوى تضحيتهم العظيمة .. انهم يقتطعون من طعامهم ليعطونى .. أما أنا فسأعطيهم ما بقى منى ... وشتان ما بين الموقفين !! آه ما هذا الذهول ؟ هل أنا فى حاجة لمزيد من الآلام لأسترجع الماضى على هذا النحو المؤسف ؟ أما كفانى هم هذه الليلة ..

وفى الصباح كنت أقف فى الشرفة حافيا أشعث الشعر متهدل الثياب . لكنى كنت يقظا تماما ، وكانت كل خواطرى تتجه الى النافذة التى أشرقت منها الشمس على قلبى ذات صباح فأدفأته ... ثم غابت الى الأبد ..

ـ يا خسارة .. هانت عليك هذه الشرفة حتى تقف فيها دون أن تغسل وجهك ؟

ـ ولماذا أغسله يا عطيات ماذا فى الحياة من جديد حتى أجدد نفسى لاستقباله ؟

ـ فى الحياة مستقبلك وشبابك وأيامك الزاهرة .. وبسمة الدنيا العريضة .. عام واحد وتتخرج .. وعام آخر ويمتلىء جيبك بالمال .. وتتهافت عليك الحسان فتختار من يريد قلبك .

ـ لقد اختار قلبى وانتهى الامر .. وما أظننى بمستطيع أن أختار غيرها

ـ أنت واهم .. انك ستحب غيرها .. وربما غيرها أيضا .. وانها .. والله .. لا تستحق منك كل هذا الأسى .. انك لم تتزوجها على أى حال لتحزن لفراقها كل هذا الحزن .

ـ بل اننى تزوجتها .

ـ تزوجتها ؟!

ـ نعم تزوجتها ·· ألفتها روحي·· ورضيت ·· وعاشت معها ·· فماذا يبقى !؟ ربما كانت الصلة الجسدية بين الزوجين تخلق فيهما من الأحاسيس ما يزيد الحب أو ينقصه لكن الحب هو الوضع الانساني المتعادل ·· هو الانسانية الحقيقية ·· وقد عثرت على انسانيتي في حبها · الحب احساس لا يتوقف على الرؤية الخارجية ·· هناك من هي أجمل منها بلا شك ·· لكنها لن تروق لي مثلها ·· انها مسألة احساس ·· ان تهافت السياح على ايطاليا مثلا ليس معناه أن ايطاليا أجمل من مصر !! ولكن معناه أنهم يجدون احساس الراحة متوافرة هناك عن هنا·

ـ لا ·· معناه أن ايطاليا استطاعت أن تجذبهم فاكتفوا بها ظنا منهم انه ليس هناك مثلها·· وغدا تجد «ايطاليا» أخرى تجذبك وتعطيها نفس الاحاسيس وربما أكثر !!

ولمعت في ذهني صورة خاطفة لزميلة في الكلية أظهرت نحوي شيئا من الود لكني لم أحاول مجاراتها لما كان يملأ قلبي من هيام بالمرأة في المدينة الصغيرة ·· عجيب ·· أأفكر في الأخرى ولا زال قلبي ينزف من الأولى !؟ كلمة عابرة من أختي تقولها لتغرى قلبي تحولني من فتى مخلص الى غادر لا قيمة عنده للذكرى ·· ولا وفاء ؟

ـ صدقني ـ الزمن ·· الزمن يا رفعت يصنع أشياء كثيرة ·

ـ الزمن هو الذي أفسد كل شيء·· لو أن الزمن تقدم بي عاما أو تأخر بها عاما لكنت تخرجت ولأمكنتني ظروفي من الوقوف الى جانبها وشجاعة وحماية نفسي وحمايتها من المصير التعس الذي نساق اليه ·· كل البلاء من الزمن ·

ـ سامحك الله يارفعت·· لو نظرت الى الوراء لرأيت نفسك منذ سنوات طفلا حزينا يتيما تثير رؤياه الشجن ·· لكنك الآن ·· رجل ·· مكتمل ·· ولك مستقبل ·· كلك مغريات ·· أليس غريبا أن تعتبرني أختي صاحب مغريات وأرى نفسي ضائعا لانعدام المغريات !! هل هو « الكعكة في يد اليتيم عجبة » أم أن في هذه المواهب حقيقة لكني لا أراها لشدة التصاقها بي·

عندما تتحطم المرآة نرى كل شيء في غير مقاييسه الطبيعية وتختل صور المرئيات ·· وتبدو المعالم متنافرة شاذة ·· لم تعد مدينتي الصغيرة جميلة كما كانت ، لم أسمع تحيات أحد · لم أبتسم للأطفال · بل أزعجني صياحهم في الشارع وأرهق وحدتي ·· لقد تحطمت مرآتي الخاصة التي كنت أرى صورتي مستكنة في قرارتها ، وعدت انسانا ضائعا ·· برغم اخوتي ·· وكان ضروريا أن أرحل ، لكن عطيات حاولت أن تنثر دموعها في طريق عودتي حتى تحملني على البقاء الى انتهاء العطلة ·· لكن ·· هل أنا حقا في عطلة ؟ بالعكس ·· انني في السجن ··سجن من عذابي ·· ولكن أحدا لم يستسلم ·· ولا أنا ·

ـ ارحموني ودعوني أسافر بلا ضجة ·

ـ دعه يا حسين ·· دعه لحاله · لقد كان يزورنا من أجلها وقد انكشف الغطاء ·· دعه يذهب ·

obeikandl.com